كلمة التحرير

أهميَّةُ الدراسات الحضاريَّة في تكوين الوعْي الحضاريّ

هيئة التحرير

لم يخْلُ زمنٌ من الأزمنة إلا وثَمَّة حديثٌ عن العلاقة بين خصائص الأفراد أو الجماعات البشرية المختلفة، وأنماط التعامل فيما بين الأفراد أو المجموعات، تعاوناً وتكاملاً، أو تنافساً وتدافعاً، أو صراعاً وتقاتلاً. ولعلَّ هُويَّةَ الفرد أو هُويَّة الجماعة كانت أكثر عنصر من عناصر التمايز والاختلاف، وعلى أساس التقارب أو التباعد في الهُويَّة تكون طبيعة العلاقات بين الناس. وعندما يأخذ الحديث عن هذه العلاقات منحىً حضارياً؛ يحاول كل طرف من أطراف العلاقة أن يكوِّن رؤيةً محدَّدة لذاته، ورؤيةً محددة للطرف الآخر.

ولعلَّ أهم سؤال شخّص حال الذات والآخر في تاريخنا الحديث والمعاصر، هو ذاك السؤال الإشكاليُّ المهمُّ الذي قدَّمه شكيب أرسلان، عنواناً لكتابه: لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرُهم؟! وعلى الرغم من أنَّ المعالجة النقدية التفحّصية التي قام بها أرسلان في كتابه لم تكن بحجم قيمة السؤال وأهميته في السياق الحضاري، إلا أنَّ له قصب السبق في الدعوة إلى تفحُّص الذات، ونقدها، وتبيّن عوامل تخلُّفها، ومحاولة استكناه شروط نهضتها. وتابَعَه بعد ذلك عددٌ من المفكرين العرب والمسلمين الذين استقرأوا شروط النهضة ومعيقاتها، فكان لكل منهم توجُّهٌ محدَّد؛ إذ التقت هذه التوجهات أحياناً عند بعض التقاطعات، واختلفت في أحيان أخرى عن بعضها اختلافاً قليلاً أو كثيراً، ومن هؤلاء على سبيل المثال: مالك بن نبي، وعلي شريعتي، ومحمد إقبال، وإسماعيل الفاروقي، وأنور عبد الملك، ومحمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن، وجاسم السلطان، إلخ.

وتأتي المدرسة التوحيدية –وعلى رأسها مدرسة إسلامية المعرفة– لتوضّح الإطار الفكري للسؤال الذي طرحه أرسلان وغيره من المفكرين، ولإيجاد الآليات المنطقية والمناسبة للنهوض المنشود، المتمثل في بناء رؤية محددة للعالم، وصياغة نظام للمعرفة،

وتشكيل منهجية للتفكير والبحث والسلوك، وممارسة هذه المنهجية في التعامل مع الأصول التأسيسية (القرآن والسنة)، ومع التراث الإنساني، والإحاطة بمعطيات الواقع البشري المعاصر، لملاحظة طبيعة التفاعلات التي تتم بين المعرفة التي ينتجها العقل المسلم وغيرها من المعارف، وتحديد أنماط التثاقف بين الحضارات، وصولاً لفقه الواقع، وفقه التأثير في الواقع وبناء المستقبل، برؤية مهتدية مستبصرة.

لقد أدركت المدرسة التوحيدية أهمية الدراسات الاستشرافية المستقبلية، التي تسهم في صياغة التوجُّه الحضاري المنشود، فأعطت للدراسات الحضارية أولوية متقدمة، وحدَّدت مفهوم الدراسات الحضارية بأنها دراسات تتمحور بداية حول فهم مكوّنات الذات، وملاحظة مفردات الدورة الحضارية وعمليات التداول الحضاري، ودراسة الأسس التي تقوم عليها الحضارات وعوامل انهيارها. ثم تأتي بعد هذه البداية ومعها، وعلى أساسها، جهود إدراك البنى المعرفية عند الآخر، وتفكيكها، وتتبُّع مظاهر صلتها بالذات وتفاعلها معها سَلباً وإيجاباً. وتأتي الخطوة الثالثة لبلورة تصوّر محدَّد حول خطط النهوض الحضاري للأمة، وحشد متطلباته الفكرية والمادية والبشرية، وإحسان توظيفها، وتوجيه الجهود التي تواجه التحديات القائمة وتستثمر الفرص المتاحة، من أجل تمكين الأمة من الإسهام في الحضارة الإنسانية وترشيدها. وقد لمسنا هذا الوعي في تأطير الدراسات الحضارية من خلال أعمال بعض المدارس الفكرية مثل مدرسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأفكارها لا سيما المتصلة بفكرتي: إسلامية المعرفة وإصلاح الفكر الإسلامي، ورجالها مثل الفاروقي وطه العلواني وعبد الحميد أبو سليمان، ولمسناه كذلك في بعض المفكرين مثل: طه عبد الرحمن لا سيما في كتبه: سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، والحق العربي في الاختلاف الفلسفي، والحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، وروح الحداثة إلخ. وكذلك علي شريعتي في سِفره المميز: العودة إلى الذات. ومالك بن نبي في: شروط النهضة، ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ومشكلة الثقافة، وإنتاج المستشرقين. والمسيري في تأليفه وتحريره لإشكالية التحيز، والفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، والإنسان والحضارة والنماذج المركبة إلخ.

لقد عشنا ردحاً من الزمن نناقش مسألة الذات والآخر من خلال مخيال الذات في إنتاج الآخر، ومخيال الآخر في إنتاج الذات. ونتجت صورة عن كليهما تفتقد -ولو جزيئاً- البُعد المنهجي والعلمي. واستخدمت في معرفة الهويات والثقافات آليات ومناهج تفتقد إلى الموضوعية والصدق في غالب الأحيان؛ إذ نحت منحى الإسقاط والتهميش في صنع الحضارة، استمراراً واتساقاً مع المناهج الاستشراقية، التي كانت تناقش موضوع الثقافات الأخرى من منظور مركزي استعلائي؛ إذ جعلت الشعوب موضوعاً للدراسة لا ذاتاً ثقافية تساعد في الفعل والبناء الإنساني. وللأسف فقد عملت الدراسات الأكاديمية ذات المنحى الإقصائي على الشَّرْخ الحضاري، وعدم الاعتراف بجهود الآخر. وهذا ما لمسناه من دراسات المستشرقين وعلماء الأنثروبولوجيا الغربيين مثل دوجيراندو وكلود ليفي شتراوس وستيفان كوكلهاين وماكس فيبر وبرنارد لويس وفرانسيس فوكاياما وتوماس فريدمان إلخ. وبذلك بَنَت هذه الدرسات سوراً ثقافياً وحضارياً يفصلها عن بقية الثقافات، وصرفت هذه الدراسات وقتاً كبيراً في تعمية الإنسان الغربي عن الوعي بحقيقة التثاقف البنّاء. وتحوّلت الأدوات المعرفية والمناهج من وسائط معرفية محايدة إلى إيديولوجيا تقرر مسبقاً النتائج والأحكام. وبناء عليه تحوّلت الثقافة، والدراسات الثقافية والحضارية إلى أداة أساسية لاصطناع الاختلاف. ومن هنا ظهرت تلكم المصطلحات والمفاهيم التي تنادي بـ: صراع الحضارات وتصادمها؛ إذ انطلقت من قاعدة أساسها أن الاختلافات الثقافية بين شعوب العالم هي تعبير عن انقسامات ثقافية أصيلة ذات منحى صراعي وجودي.

وبناء على ما سبق ثمة حاجة ماسّة لتأسيس مراكز دراسات حضارية قادرة على إيجاد البديل الحضاري، الذي اختزله الغرب في منظومته المعرفية والقيمية. وينبغي لهذا البديل الحضاري أن ينطلق من فكرتين أساسيتين في البناء الحضاري،: الأولى هي حقيقة تنوع البشر والثقافات في القدرات والاهتمامات؛ تنوُّع إغناء لا إلغاء. والثانية هي قيام الوجود البشري على التعارف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات: ١٣). وقد رسم القرآن الكريم صورة عميقة لهذا التنوُّع في أكثر من آية، فقال عز وجل: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ

وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم: ٢٢) ويمنحنا القرآن الكريم فرصة لتبيّن أوجه الائتلاف والاختلاف من وراء هذا التنوُّع أو التغاير، فثمة تدافع حضاري يقضي على المفاهيم المتصلة بصيغ التفضيل الدنيوية (الأنقى والأعلى والأسمى إلخ)، ليتيح للفاعلية البشرية –حسب مجهودها وتفاعلها مع فكرة الاستخلاف والإعمار، وحسب قدرتها على الأخذ بالأسباب– أن تتجه نحو الصلاح والفلاح وإعمار الأرض، فيقول عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥١) وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

إنَّ التأسيس المعرفي لمفهوم الدراسات الحضارية يقتضي من الذات تفاعلاً مستمراً مع الأصول التأسيسية (القرآن الكريم والسنة النبوية) بوصفهما المنشئين لكل ما يقوّم السلوك ويضبطه، وتفاعلاً مع التراث بوصفه تبياناً للفاعلية البشرية في فهم النّص، وتقويماً لهذه الجهود في البناء الحضاري. ويقتضي كذلك تفاعلاً مع المعرفة الإنسانية بوصفها خبرة متاحة للجميع، وحِكمة ينبغي للعقل المسلم البحث عنها واستثمارها على الوجه الأحسن والأكثر إتقاناً، وتوجيه هذه المعرفة بما يخدم البشرية جمعاء. ويتطلب ذلك من المسلم التمكّن من العلوم والمعارف الحديثة بصورة تتسق مع التسارع الكبير في حركة العلم؛ لكي ننتقل من أمة مستهلكة للنظريات والمعارف إلى أمة مُنْتِجة ومشارِكة في صنع الحضارة.

صحيح أنَّ العالم اليوم ودوائر صنع القرار يثقان بشكل جيد ومعقول بالمؤسسات البحثية ومراكز البحث والفكر؛ إذ أثبتت حضورها وفاعليتها في إنتاج المعرفة وتوجيهها، بفضل قدرتها التخطيطية والتنظيمية والتمويلية. وعلى الرغم من الضعف والقصور الذي يكتنف الجامعات العربية والإسلامية، فيما يتصل بالبحث العلمي وتطوير الأفكار، فإننا نعتقد أنّ المحاضن الجامعية تبقى المكان الأنسب لتأسيس مراكز للدراسات الحضارية، فالجامعات هي التي تحتضن الموارد البشرية الأعلى تأهيلاً وتنوّعاً في الخبرات والكفاءات.

والبحث العلمي، والإشراف على البحث العلمي في الأطروحات الجامعية، جزء أساس من مسؤولية الأستاذ الجامعي، فضلاً عن مسؤولية المراكز المتخصصة بالبحوث والدراسات التي تحتضنها الجامعات.

لقد أنشأت القوى الاستعمارية –عندما كانت تدير بلادنا– جامعات ومؤسسات أكاديمية ومراكز بحثية، وجعلتها أدوات لتعميق الشروخ الثقافية والحضارية في جسد الأمة. كما أنشأت تلك القوى الاستعمارية في بلادها مراكز بحثية متخصصة تدرس شؤون بلادنا وتتابع أدق التفاصيل فيها، وتنشر نتائج دراساتها لتكون أساساً للخطط والاستراتيجيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي نرسمها نحن في ضوء تلك النتائج ببلاهة عجيبة، أو تُرسم لنا ببلاهة أعجب! وكم كانت نتائج تلك الدراسات مصدراً لتضليل الرأي العام، وتشكيل الأفكار والتوجهات والمشاعر، وإعادة رسم الخرائط، وإثارة "الفوضى الخلاقة" وتحقيق التدمير الشامل، في بلد بعد آخر من بلداننا.

إننا نأمُل أن يكون قد تحقق لدينا قدر من الوعي بهويتنا الفكرية، وبذاتنا الحضارية، وأن نكون من ثَمَّ قادرين على تدعيم جامعاتنا بمراكز البحوث الفكرية والحضارية، التي يمكن أن تكون أدوات لتعميق الوعي الحضاري وتشييد البناء الحضاري، وتحقيق المسؤولية الحضارية، ليس لتحقيق النهوض الحضاري لأمتنا وحسب، وإنما لترشيد الحضارة الإنسانية وتوجيهها بقيم الفطرة وهداية الوحي، من أجل مشترك إنساني يحقق مهمة الإنسان الاستخلافية والعمرانية في هذه الحياة.

إن في تأسيس مراكز دراسات حضارية في كل جامعة من جامعاتنا تحقيقاً لمكاسب متعددة، من أهمها: القضاء على ثنائية المركز والأطراف والنظريات الكونية، وهدم أسطورة أن الغرب وحده القادر على إنتاج المعرفة. كما تساعد الدراسات الحضارية على إيجاد مكان وحضور للمسلم في كتابة تاريخ العالم وتاريخ العلم، بعد أن مرّ علينا زمن تلقفنا فيه العلم ومناهجه دون محاججة فكرية أو معرفية لأصوله وفلسفته، فصيغت برامجنا الأكاديمية بناءً على معطى الآخر ورؤيته للعالم، حتى التأريخ للتمدن في جغرافيتنا ارتبط بغزو الآخر لنا، مثلما حدث بالربط البنيوي والمؤسسي بين النهضة وحملة نابليون على

المشرق. فدور الدراسات الحضارية ماثل في إعادة التوازن للمثقف العربي والمسلم، كي يقرأ تاريخه من وحي سيرورته التاريخية والثقافية، لتمكينه من التخلص من عقدة الغرب الحضاري المتمدن، الذي أوهمنا بأن التقدم مرتبط بإحداث قطيعة مع البنيات التأسيسية والمعرفية لثقافتنا، لنستعير ما عنده –غثّه وسمينه– من أجل أن نلحق بركب التقدم والحضارة. وستفسح هذه الدراسات المجال واسعاً لقراءة الفعل الغربي على أنه جزء من التاريخ وليس إطاراً مهيمناً على هذا التاريخ.

يتضمن هذا العدد بحوثاً تناقش موضوعات تتعلق بالذات وبالآخر، وتكشف عن معالجات العلماء لبعض القضايا التي تتصل ببعض مفردات التكوين الفكري والمعرفي والعقدي للأديان السماوية. فقد تطرق الدكتور راجح الكردي إلى موضوع "عصمة الأنبياء عند الأشاعرة في ضوء القرآن الكريم: نقد وتأصيل"، وكشف فيه الباحث عن قواعد علماء التوحيد في موضوع عصمة الأنبياء، وحاول تقديم قراءة تأصيلية جديدة لبحث العصمة، من خلال فهم أفعال الأنبياء في قصصهم في القرآن في سياقاتها القرآنية دون الدخول إليها بالمقررات السابقة المتهمة، والموهمة بعدم العصمة، اعتماداً على الروايات الإسرائيلية مما نقل في كتب التفسير بالمأثور.

أما البحث الموسوم بـ: "الجنة في التلمود البابلي: دراسة مقارنة في ضوء القرآن الكريم" فقد كشف فيه الدكتور عامر الحافي عن وجود تشابه كبير في أشكال النعيم الأخروي بنوعيه بين التلمود البابلي والقرآن الكريم، وعلى وجه الخصوص رؤية الله في الجنة بوصفه أعظم نعيم يناله أهل الفردوس. ورأى البحث أن الايمان بالجنّة هو من الموضوعات الكبرى التي تُعدّ من أركان كلّ من الديانتين الإسلامية واليهودية، وأن البحث المباشر في المصادر اليهودية يؤكد ما أخبر به القرآن الكريم من كشفه عن اعتقاد أنبياء بني إسرائيل بالجنة ونعيمها، وتصديقه لما قبله من الكتب الموحاة.

وتطرق الدكتور محمد الجندي في بحثه: "الخطاب الفلسفي بين الواقعية والرمزية: مفكرو الغرب الإسلامي أنموذجاً" إلى جانب مهم من جوانب الفكر الفلسفي، وهو المتعلق (بالجانب الأخلاقي)؛ إذ تمت معالجته في إطار (الرمزية والواقعية)، ممثلة في أبرز

فلاسفة الغرب الإسلامي المتصلين بموضوع البحث، ووجد أن الجانب الأخلاقي بشقيه (الرمزي والواقعي)، قد تحقق بكامله في بيئة الغرب الإسلامي؛ إذ إن الإطار الذي تحرك فيه مفكرو الغرب الإسلامي تناول القضايا الأخلاقية في إطار عقلي، وصل فيه العقل إلى المقصد الأسمى الذي ترسمه الحكمة العملية؛ أي إلى الخير والفعل المثالي. ومن ثم إلى الخير الأسمى الذي هو الله سبحانه وتعالى، وقد تمثَّل (الجانب الواقعي) كل من "ابن حزم"، "وابن رشد". وتمثَّل (الجانب الرمزي) كل من "ابن باجة"، "وابن طفيل".

وقام الدكتور عبد الناصر سلطان محسن والدكتور إبراهيم محمد زين في بحثهما: "مفهوم المقدّس والمدنّس عند مرسيا إليادي: دراسة تحليلية نقدية مقارنة" بتحليل ما كتبه إليادي حول المُقَدَّس والمُدَنَّس من خلال فهمه للأديان البدئية والقديمة، صائغاً منها نماذج بدئية محددة ومعتبرة عنده في جميع الأديان والمعتقدات، ومفسراً -بناء عليها- سلوك الإنسان بشكل عام والمتدين بشكل خاص. وكشف البحث عن فهم إليادي للدين الذي يتمثله في عقيدة الديانة الكونية التي يزعم أنها هي حقيقة جميع الأديان والمعتقدات. وبيّن البحث الرؤية الإسلامية في موضوع المقدّس والمدنّس، ومفارقة الرؤية الإسلامية لرؤية إليادي في النظرة إلى الديانة الكونية ووحدة الوجود.

وتضمن العدد كذلك مراجعتين؛ كانت الأولى لكتاب: "المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم"، تأليف: الدكتور أحمد بسام الساعي، وقدّمها الدكتور حسام مصطفى اللحام؛ أما المراجعة الثانية فكانت لكتاب: "مقاصد الشريعة كفلسفة للتشريع الإسلامي: رؤية منظومية"، تأليف: الدكتور جاسر عودة، وقدمها الدكتور ماهر حسين حصوة.

واحتوى العدد على تقرير لمؤتمر: التعليم العالي والبحث العلمي في الدراسات الإسلامية: رؤية استشرافية في ضوء التحديات المعاصر.

وفي العدد منتقيات حديثة لبعض المؤلفات المتصلة ببحوث العدد ضمن باب عروض مختصرة.

والله ولي التوفيق